١٠ – أومن بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

زال عهد الصمت والجمود — رسالة يبعثها سر الانسان — مسألة لا تبعث على الاستكانة — لا تتعجلوا النتائج — موارد فياضة معطلة تنتظر الصنعة — السيد هو إنسان الصناعة — بين قيادة البقر وقيادة الفولاذ — مضى زمن التخريف فى الله وبقى التخريف فى الانسان — برزخ على هوة ! — سر ظهور الدين قبل العلم — أسس خفية لحياة الاجتماع — أباطل أصلح للحياة من الحق ؟ — مم تتفجر نبع الضمير ؟ — حيث الأنس بالانسان .

قديماً كان كل شىء فى الطبيعة صامتاً جامداً أيام بدء ظهور الإنسان . فلم يكن يتكلم غيره هو ؛ بل كان هو أيضاً أبكم محبوس اللسان لا يتكلم إلا بمقاطع ساذجة وأصوات وجدانية ؛ وكانت وجوه الطبيعة جامدة مبهمة ، وأبوابها موصدة ...

والآن صارت الأشياء متكلمة محدثة طليقة الوجوه مفضوحة الأسرار . أنطقها الإنسان الذى علمه الله البيان فعلمه هو بدوره إياها وجرد منها حناجر تحدثه وتعيد عليه حديثه لتؤنسه فى رحلته إلى صوب مجهول ... !

ولقد زادت عجائب الكون بانضمام العجائب الإنسانية إلى العجائب الإلهية فى الطبيعة . وكان كفر الإنسان بالله ناشئاً من ذهوله عن بدائع مصنوعاته تعالى ، وكذلك صار الآن كفر الإنسان بنفسه ناشئاً عن ذهوله عن مصنوعاته هو !

ألا إن حمله على الإيمان بنفسه رسالة لا تحتاج إلى رسل يعلمهم سرُّ السماء إلى الأرض ، وإنما تحتاج إلى رسل يعلمهم سر الإنسان ووحى أعماله فى الأرض ... !

وقد ظل الله ربه يقول له وهو طفل جاهل قاصر عاجز : من هنا الطريق ... إلى الحياة والملكوت . إفعل هذا واترك هذا . كن كذا ولا تكن كذا ... حتى أدرك جادة الحياة الكبرى وبانت له تباشير الدنية المنشودة التى كان يحلم بها ويطلبها من الرسل كمعجزات . فأسرع إليها وغمرت حواسه دهشتها وأعاجيبها ، وألهاه ذلك عن التفكير فى نفسه فعاش فى ضجة ما يصنع كما تعيش دودة القز فى الشرنقة ...

وقد خلى الله بينه وبين الحياة بعد أن ترك له وصاياه فى الصحف الأولى ...

قد يقول قائل : ماذا يريد ذلك الإنسان المحدود من ضجته فى الأرض ؟ ضجة حناجره ومصانعه ومدافعه وجراراته ودباباته وطياراته وبوارجه ؟ إنه ضئيل ، وإن مسرحه ضئيل . فهو شىء صغير على سطح الأرض وهى ذرة سابحة مع ملايين الملايين من النجوم والكواكب . فماذا عساه أن يصنع حتى لو ركب الأرض نفسها وصرّف مقاليد سيرها كما يصرّف مقاليد طياراته وجراراته ؟ أليس الفناء نهايته ونهاية ما يصنع ؟

فأقول لأمثال هذا : رويدكم ... لا تتعجلوا نتائج حياة الإنسان ولا تشكوا فى أنها ستكون عظيمة أعظم مما تتصورون بعد أن رأيتم من فعله مالو رآه آباؤكم لماتوا عجباً !

إنكم تشكون فيه لأنه لم تثبت لحياته نتائج دائمة ، وعندكم أن كل أعماله مَلاهٍ وسَلوَيات فى شئون خاصة كالشئون الخاصة بأى فصيلة من فصائل الحيوان

كذلك قال الذين لا يعلمون من آبائكم مثل قولكم . إذ لم يروا ميتاً يرجع ومفقوداً يؤوب ... !

ولكن الأمر فى حياة الإنسان وخلوده ليس كما تتوهمون أمراً متعجلاً ، وليس ماضى عمره على الأرض طويلاً . إنه ثمرة لا بد من نضجها فى زمن معلوم تظهر بعده نتائج خالدة وأسرار مخبوءة لها صلة وثيقة بالكون الطبيعى نفسه وبالروح الأكبر الذى وراء الطبيعة

وسيرى الذين يذهبون الآن أنهم بعد الموت فى دور انكشاف وظهور ، إذ لا يعقل أن يمضى هذا الخالق الصغير إلى الفناء المطلق ...

ثم أقول : ماذا تريدون أن يفعل إذاً ؟ أتريدونه ينام حالماً يدخن النارجيلة والحشيشة والأفيون كما يصنع أغلب إنسانية الشرق المضيَّعة ؟ أم تريدونه يجلس فارغاً ينتظر الموت وينشد الأشعار ولهو الأحاديث ؟

إن عليه أن يملأ هذه الأرض بالضجة والقوة التى يستطيع تسخيرها ، وأن يسلط قوى نفسه الكامنة على هذه المواد الساكنة ويثيرها أيما ثورة ليدخلها فى نطاق الحركة بعد السكون والحياة بعد الركود ... ولا عليه بعد ذلك أنه ضئيل فوق زورق ضئيل يسبح فى عَيلم كبير ...

فلو نظر الإنسان إلى جبروت الطبيعة وهول السماء لاستصغر جهده على الأرض مهما عظم ولم يفعل فى حياته إلا ضرورات

احتياجاته . وبالطبع هنا يرده ضعيفاً مستضعفاً شقياً فريسة لغيره كما كان ؛ ولكنه إذا آمن برحابة نفسه وقوة فكره وقدرته على أن يفعل الأعاجيب ، وأنه على منؤولة جسده يستطيع أن يحرك الجبل وينسفه بتسليط قوة طبيعية أخرى عليه . إذاً كان هذا به أولى وعليه أنفع وأجدى ، وكان هذا أشرف له إذ يجعله قوة من القوى العاملة الجبارة في الحياة

إن عليه أن يصنع ويتمتع ويتفرج بما يصنع ... وربما يكون هناك عالم آخر يتفرج أيضاً بما يصنع الإنسان ويتمتع به كما نتمتع نحن بنتاج النحل ومنافع كل كائن أقل منا في الارض إدراكا واحتيالاً ...

إن الطبيعة تنازل فكره وتثيره للعمل فيها منذ أيامه الأولى ، فالطفل يبحث في محيطه ويسلط جميع حواسه على محتوياته فيراه ويلمسه ويذوقه ويتسمعه ويشمه حتى يحيط بخواصه ويثير كوامنه ويطلقها خيراً من تعطيلها وسجنها

وقد وجدنا كل ما في الطبيعة من مواردها الكبرى بسيطاً غير معقد ، فياضاً بكميات كبيرة جداً ، خاضعاً للتعقيد والتركيب والتأليف والتوزيع والتنويع ... فدلنا ذلك على أن هذه المواد إنما وضعت هكذا هائلة فياضة انتظاراً لصنعة ستتناولها بها يدُ صَنَّاع

وكلما رأيت غزارة ماء الأمطار — وهو أصل الحياة — وكثرة القادير التي تصبها الأنهار في البحار فتذهب من غير انتفاع إلا بجزء قليل جداً منها . . . قلت : إن هذه الكميات الهائلة إنما أفيضت لا لإخصاب السهول الحافة بها فقط ، والتي تصل إليها مياهها في سهولة ويسر . . . وإنما أفيضت لإخصاب هذه الأراضي البور من الصحاري والسهوب الظمآى العقيم ...

وكلما رأيت مناجم الأرض تغلي بالمعادن والركاز المعطلة وهي ذات النفع العظيم والإمتاع الدائم ، قلت : هنا مواد ظلت الطبيعة تحفظها في صدرها حتى أتى يوم بعثها على يد من عرف أسرار الانتفاع بها في زمن نمو علوم الآليات والكهرباء

وكلما رأيت أغلب مناطق الأرض لا تزال خالية من السكان أو غير متشبعة بهم... قلت : هذه كن احتياطية لأقوام آتين ستلجئهم ضرورات الزحام إلى سكناها وتعميرها وتعديل معهودها؟ وأجوائها وإخصاب بقاعها ...

وكلما رأيت البحار السبعة وما فيها من عوالم وعناصر وموارد الطعام والدفء والصناعة ... قلت : هذه قدور هائلة يطبخ فيها مستقبل مجهول لهذا المخلوق ...

فهذه المقادير العظيمة من المياه والمعادن والأراضي والغابات ظلت تفيض فيوضها بالكيل الواسع ، وتدور دوراتها وترجع من غير أن ينتفع بها أحد انتفاعاً يبرر غزارتها إلى أن أتى عصر تفتح حاجات الإنسان الصناعية والعمرانية بتفتح أسرار الطبيعة لفكره ، فإذا بهذه الموارد التي كان يظن البعض أن فيها إسرافاً وتبذيراً يبدو لعيون العلماء وأرباب الصناعات والأعمال أنها موزونة متكافئة مع نمو حاجات الإنسان واتساع افتنانه . . .

* * *

هذه الحياة الصناعية البارعة المعقدة كانت هي أعظم الموحيات الآخذات نفسي إلى الإيمان بالإنسان وإلى الكشف عن قوته الابتداعية النامية المنمية . وإن بها تفرده وامتيازه بين الكائنات في إحداث الأشياء ، وفي تغلبه على غيره من الحيوانات ، بل وفي تغلب بعض أقوامه على بعض . وقد نمت قوته الصناعية نمواً عظيماً حتى بدت في هذه القوى الساحقة التي يستخدمها الآن في حربه ...

ولا شك أن إنسان الصناعة هو سيد الأرض . أما إنسان الزراعة فهما افتن فيها وهندس واجتهد فإن حياته حياة بدائية ، لا تعقد الفكر ولا تترك في الأعصاب أثر القوة والابتداع والسيادة . وقد صارت الزراعة الآن خاضعة إلى حد كبير للصناعة ذات تبعية لها ...

ولذلك رأينا الأمم الصناعية تسود الأمم الزراعية على رغم القلوب الطيبة والمثل العليا التي تشيع بين الزراعيين في العادة منتقلة إليهم من اعتمادهم بعد بذل جهودهم على مُغزل النبت وباعث الخصب ... ومن طول معاشرتهم للنعاج الوديعة والبقر المطيعة والأنعام التي تعطي ولا تأخذ ، وتسام على الخسف ومع ذلك تجتر سعيدة حالمة ...!

وطبيعي أن يتغلب من يدرب أطفاله على ركوب الحيوانات الحديدية وقيادة الوحوش الفولاذية على من يدرب أطفاله على ركوب الحمير والبغال ، وقيادة الأغنام والأبقار ...

وكل ما يحدثه الإنسان في المواد يدل على اتساع مدى نفسه وامتداد خيالها ، وأخذها من محيط واسع عميق ، وامتياحها من ينبوع زاخر بالصور والأشكال والأنواع ، وقوة تعقيد فكرها

وقدرتها على إحداث نسب جديد، بين العناصر والمواد ... وهذا ما لا وجود له في الزراعة

ولكي تدرك ما أرمي إليه، فكرْ في الحياة الصناعية من المسمار الصغير إلى المصنع الكبير وما بينهما ...

* * *

يلام الإنسان على غفلته عما صنعه هو بيديه وملأ الدنيا به كما كان يلام في العصور السالفة على غفلته عما صنع الله في الطبيعة

ولقد مضى زمن التخريف والضلال في العقيدة بالله رب الطبيعة، لأن الحياة لا تحتمل الجهل به تعالى إلى الحد السخيف الذي كانت فيه عبادة الأصنام والأشخاص والنجوم وغيرها. ولا تحتمل أن تجرد الطبيعة منه تجريداً كالذي كان من المعطلين منكري القصد والإرادة والعناية فيها. ولفظت العقول الأديان التي تعتمد على غير العقل في إثبات حقيقة الوجود الأولى والحقائق التي تليها؛ وعشق الناس جمال الطبيعة وصدقها، وعرفوا من أسرار الصناعة فيها، فيبقى عليهم لتكمل عقائدهم في الحياة أن يتيقظوا دائماً لمنشئها ومدبرها، ويتقربوا إليه بالفكر فيه وتكريم اسمه كما يتقربون على الأقل لأساطين علمائهم الذين عرفوا من علومه جانباً ضئيلاً ...

ولكن جدَّ تخريف وضلال في العقيدة بالإنسان بسبب فرض لم يثبت في نظرية النشوء والترقي، أطلق حوله كثيراً من الاعتقادات الفاسدة. ومقاومة هذا التخريف الأخير هي أهم رسالات الدين في هذا العصر.

* * *

هذا الفرض جعل كثيراً من الناس لا يريدون أن يصدقوا أن بينهم وبين الله صلة محترمة أو عناية. وكأنهم يخجلون من التكريم والإحسان الذين يقول الدين إن الله يصطنعهما في معاملة الإنسان

وهم يقولون إن حياة الإنسان بالنسبة لله تعالى حياة تافهة ضئيلة، وإن بينهما هوة سحيقة لا عبور لها، وأن الحياة الإنسانية على الأرض لا تقدم ولا تؤخر في سير الناموس الأعظم الذي ينتظم الكون. فسواء على الله وعلى الكون أن يضل الإنسان أو يهتدي، أن يعف وأن يشره ... فتلك شئون خاصة به خاضعة لاعتبارات تحتمه، وسوف يفنى بأخلاقه وأعماله كما تفنى النمال والنحل، وكل ما لبسته الحياة من غير رُجعى أو مصير أكل ...

ولكن الواقع أن نجمة الإنسانية وحدها، وتغير الأرض بها وحدها، وتعقد الدنيا بها وحدها، واطراد نمو الحياة المادية وانكشاف خصائصها بها وحدها، وارتقاب غاية مجهولة منها وحدها ... هي أمور من الحق بحيث تشغلنا عن سواها وعن شبهات ضآلة الإنسان بالنسبة لله ... وهي ذاتها البرزخ الذي نعبر عليه تلك الهوة التي بيننا وبين الله!

فعند ما ينظر ناظر لظاهر مجموع الناس يخيل إليه أنه لا صلة بين قلوبهم وأفكارهم وبين السماء، وأنهم غير مأبوه لهم من صاحب الوجود ... وحينئذ تنطلق الاعتقادات الفاسدة والتافهة بالحياة وتنطلق وراءها الغرائز الخطرة، وتوجد «طاغية الكفر!» وينظر الإنسان للانسان على أنه شيء تافه يصح سلبه واستعباده وقتله ...

ولكن عند ما ننظر للحياة الإنسانية من داخل القلب تجد النظر يخلق المنظور خلقاً آخر جليلاً، ويشعر الناظر بأن عين الله راعية وصية على هذا المخلوق ...

فما أعظم أثر هذا في طمأنينة النفس حتى لو كان باطلاً! إنه يرفع آمال النفس البشرية وأفكارها حتى يجعل منطق الله خالق الطبيعة الهائلة منطقها هي. مع أن الهوة بينها وبين الله سحيقة، إذا استخدم الإنسان العلم وحده في عبورها لن يتمكن! إذ يجد مكانه في الوجود يكاد يكون لا شيء ... إذ الأرض ذاتها لا شيء بجوار عظمة الكون، فما بالك بالفرد الضئيل فيها؟

هذا يجعل للنفس ثقة وإحساساً بالعظمة، إذ يجد به الإنسان لنفسه مكاناً ملحوظاً في الوجود حين يجعل علاقته مباشرة بصاحب الوجود ...

ومن العجائب في ظهور حياة الإنسان وتدرجها، أن حياة التدين فيها سبقت حياة العلوم، فبنيت حياة التعزية والثقة على الدين قبل العلم

ولو قد سبق العلمُ الدينَ إذاً لكان موقف الإنسان في الحياة موقف ابن الطريق الشريد الغادر الفاجر، الذي لم يجد أباً وأماً يأخذ من حنانهما حناناً لنفسه، ويعرف أن قلبيهما منبعان غزيران لصفات الإخلاص والرحمة والحب، بل وجد نفسه مدركاً رشيداً، ذكياً قاسياً، على قارعة الطريق تدافعه زحمته، يعرف جرائم الحياة وجفاءها، وأخلاق الشوارع والأسواق، ولا يعرف روابط الأسرة ومعاملة الأخُوَّة والنبوة ووصايا

الأمومة ؛ فيكون موقفه فيها موقف قاطع الطريق المسلح بالأدوات والمهارة ...

* * *

علام يقوم بناء الحياة الإنسانية ؟

حين أستعرض نظام مدينة أو أمة أو امبراطورية ، فأجد ناسها يعيشون فى تفاهم وتعاطف ومبادلة منافع ، وأجد مرافقها ومبانيها وشوارعها ومصانعها ومعاهدها تقوم فى دقة وموازنة وجمال وأمانة كأنها من الطبيعة الموزونة بيد الله ... أسائل نفسى :

من الذى أقام بناء هذه الحياة الإنسانية فى تلك الأمة أو المجموعة على هذه الأوضاع العظيمة ؟ !

ومن الذى سدد جهاد أفرادها جميعاً نحو غايات مشتركة وأهداف موحدة ؟

ومن الذى أعطاها تلك الروح الاجتماعية التى تسلك فى أعمالها وآمالها مسلك الروح الواحد فى الجسم الواحد ؟

ومن الذى هذب طباعها ورققها وجلها وصقلها وسار بها شوطاً بعيداً من عيشة الوحشية والتأبد ، إلى هذه الإنسية والاجتماع ؟

ومن الذى أقام هذه الأسر والعائلات على التراحم وجمع أطفالها ورجالها على الحب ؟

إنه لا شك سر النبوات التى نبت من القلوب الكبيرة التى كانت للانسانية فى مهد نشوئها كالأمومة الرحيمة المضحية المربية المسددة

إن هذا لا شك هو الأساس الأول الذى قامت عليه الحياة الاجتماعية وذهب بناؤها مطرداً فى العلو والسمو

فلئن غابت الآن عن الأنظار القصيرة والأفكار المشلولة ، فكما تغيب أسس الأبنية العظيمة فى باطن الأرض ، لا تُرى ولا يعرفها إلا الناظرون فى الأعماق ...

ولقد مات الرعيل الأول من الآباء والأمهات ، ولكن بقى الأبناء دليلاً متجدداً عليهم ...

* * *

ثم نسأل : أيهما أسلح للحياة ؟ أأن يعتقد الإنسان أن الله به حَفِيٌّ ، وأن يؤمن بالإنسان فيحتفل لولادته ويقوم لجنازته ويؤثره على نفسه ، ويتواضع له ويحترم دمه وعرضه ، ويعيش فى سجون الأخلاق التى تسمو بالحياة الاجتماعية ، وتقلل الخلاف والشقاق وتنمى الحياة ، وتحيط الإنسان بجو من سكينة العلم ورقة الفن ، وتسخر العلم فى خدمته وتخفيف ويلاته ، وتضع أمامه أهدافاً مرسومة ومثلاً عليا ، وفلسفة يطرد بها الوفاق ؛ ويجعل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الرجال الآباء نماذج وقمماً يتطلع إليها ... ؟ أم أن ينظر الإنسان إلى الإنسان كما ينظر للنبات والحيوان ... فإذا ولد فكجَرْو الكلاب أو سَخْل النعاج ؛ يسخَّر ويُلعب به ، ولا عرض ولا ناموس ولا قيود ، وحياته حياة فنُّها آليٌّ وعلمها التدمير والغلبة ، ومُثُلُها مكيافلية ... وإذا مات هلك وقذف به إلى ظلمة الأبد من غير رجعة أو ذكرى أو أمل فى مصير أكمل ؟ !

أما والله لو كان دين الإنسانية هذا خداعاً باطلاً ، لكان أعظم أثراً فى صلاح الحياة من ضده ولو كان الحق ! لأنه قانون الحياة الاجتماعية ، فإذا تركه الإنسان كان عليه أن يرتد إلى حياة الغابات ... وقد ارتد بعضه فعلاً الآن ... ولكنه سيعود ...

ولست أدرى : ما هو غرام بعض الناس فى أن يزعموا أنهم كشفوا تيارات واتجاهات فى الحياة تجعل الناس يحطمون الحياة الاجتماعية التى نمت مواريث علومهم وأخلاقهم فى أحضانها ؟

إن كل ما يضر حياة الجماعة ، فهو شر يميت الضمير وينزع منه الإيمان بالخير ويسلم إلى النكسة والارتداد

* * *

على أسوأ الافتراضات فى تفاهة أصل الإنسان وضآلة مكانه فى الوجود ، فتَفجُّرُ نبع الضمير فى قلبه وطواعيتُه تحت تأثيره لا بد أن يكونا بوحى وضغط من عالم أعلى ...

وهذا الروح اللطيف الذى يوجد فى القلب حين الحب ، أو حين مبادلة العلم والفكر ، أو حين تفتح القلوب بالخير ، أو حين النظر للوجود بالعين الصافية الآملة المتفائلة ، أو حين استحضار المعانى الكبيرة : كالمروءة والإيثار والتضحية الصامتة ، أو حين الإيمان العميق الرحب المشع ... هذا الروح هو مكان رصد الإنسان والأنس به والأمل فيه

فلنرصده من هناك ليكون المنظر جميلاً أخاذاً ، يبعث على التفاؤل والحب والسعى إلى الاكتمال ... اولى من أن نرصده من مكان آخر يبدو منه مطموس الجمال ، مقبوح الخصال ، منحط المكانة ، باعثاً على التشاؤم والبغض والحقد وسوء المآل !

عبد المنعم محمد خفاجى